سلطة الفقهاء على الشعر الأندلسي في عصر المرابطين

د. عيسى الوداعي*

الملخص

سلطة الفقهاء على الشعر الأندلسي في عصر المرابطين

استقرّ في أذهان كثير من الباحثين ومؤرخي الأدب، قدماء ومحدثين، أنّ الشعر في ظلّ دولة المرابطين (484-541هـ) قد تراجع، وانحسر ظلّه، وراح أولئك الباحثون يقدّمون الأسباب التي أدّت إلى ذلك التراجع.

وقد توقفوا عند أسبابٍ عدّةٍ، كعدم معرفة أمراء المرابطين بالعربية، وانشغالهم بالجهاد والغزو، وتبلبل الحياة السياسية وعدم استقرارها، وغير ذلك من أسباب، وقد بحثوا كلّ ذلك بحثا مستفيضا، غير أنّ أولئك الباحثين لم يولوا تسلّط الفقهاء على الشعر والشعراء اهتماما كبيرا، ولم يتتبعوا أثرهم السلبي في الشعر يومذاك.

ويأتي هذا البحث في سياق تتبّع الأثر الذي تركه فقهاء دولة المرابطين في الشعر والشعراء، من خلال استقراء الشعر الأندلسي في تلك المرحلة، معتمدا على شعر ثلاثة من كبار شعراء تلك الحقبة، هم الأعمى التطيلي، وابن خفاجة، وابن قزمان، مستفيدا في الوقت نفسه مما ورد في أشعار غيرهم في كتب التاريخ الأدبي التي أرّخت لتلك الحقبة.

---

* *أستاذ مساعد في جامعة البحرين*

The authority of the Islamic clergy on the Andalusian Poetry during the Almoravides age

Dr. Isa Al - Wadaee

Abstract

Most of the old and contemporary researchers and poetry historians believe that the poetry retreated throughout the Almoravides (hij484-541) reign in Andalusia; and they have provided a number of reasons for this decline which include the lack of the Arabic comprehension on the Almoravides side, their concentration on war and invasions and the political instability which plagued their time among other reasons. The historians have studied these reasons in depth yet they have ignored to a large extent the strong and the negative influence exerted by the Islamic clergy on the poetry during this period.

This study is about the authority exercised by the Islamic clerics on the poetry during the almorvides epoch. The study draws on the studies of the poetry in this period by concentrating on the work of three of the most well known poets at this era who are: the Blind of Tudela, Ibn-Khafaja and Ibn-Kuzman. The study also would investigate the other poets and poetry mentioned in the literary books that describe this period of time.

المقدمة:

بلغ الفقهاء في ظل دولة المرابطين (484 -541هـ) ما لم يبلغوه في ظل غيرها من الدول، حتى صارت أمور الناس، كبيرُها وصغيرُها، راجعة إليهم؛ لذا كانوا يتحكمون في شئون المجتمع، ويسيرونه حسب ما يرون!

ومن البدهي أن يترك أولئك الفقهاء آثارهم في العلم والثقافة، كما تركوها على السياسة وغيرها، وما بسط مذهب مالك على الأندلس دون سواه، ومصادرةُ ما لا يرتضي أولئك الفقهاء من علوم، كعلم الكلام، وإحراقُ ما لا يشتهون من كتب كالإحياء إلا شواهد بارزة على أثر الفقهاء في الناحية العلمية والثقافية والدينية.

وقد استقرّ في أذهان كثيرٍ من الباحثين ومؤرخي الأدب، قدماء ومحدثين، أنّ الشعر في ظلّ دولة المرابطين قد تراجع وانحسر ظلّه، وراح أولئك الباحثون يقدّمون الأسباب التي أدت إلى ذلك التراجع.

وسيركز هذا البحث على سببٍ لم يوله الباحثون كثيرا من الاهتمام، أعني أثر تسلط الفقهاء يومذاك في الناحية الأدبية بصورة عامة، وفي الشعر بصورة خاصة، إذ ينطلق البحث من أسئلة محورية عدة: هل أثّر الفقهاء –حقّا- في الشعراء؟ ومن أي طريقٍ كان ذلك التأثير؟ ما العلاقة بين الفقيه والشاعر؟ وكيف كان ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر؟ وكيف انعكس ذلك كلّه على الشعر الأندلسي يومذاك؟

وفي محاولة الإجابة عن تلكم التساؤلات بدأتُ بعرضٍ موجزٍ للحالة السياسية والأدبية العامة في عصر المرابطين، ثمّ أفردت لحالة الشعر في ذلك العصر عنوانًا مستقلا، عرضت فيه مظاهر تراجع الشعر، ومناقشا ما ذكر الباحثون من أسباب.

ولأجل تبيان سيطرة الفقهاء جعلت لها عنوانا مستقلا، هو (مكانة الفقهاء في الدولة المرابطية)، ثم بحثت في نظرة أولئك الفقهاء للشعر، وبيّنت تقسيماتهم إياه، وكان لزاما على الباحث أن يعرّج على موقف يوسف بن تاشفين من الشعر بوصفه زعيم المرابطين من جهة، والتابع المنفِّذ لآراء الفقهاء من جهة أخرى.

بعد ذلك تحدثت عن وصاية الفقهاء على المجتمع، وانعكاساتها على الشعر، كما

تحدثت عن أثر البيئة الفقهية في الصور الشعرية، وختمت البحث بالحديث عن صورة الفقيه في الشعر المرابطي.

وسيرى القارئ أني اعتمدت المنهج التاريخي الأدبي أساسا للمقاربة؛ إذ كنت أتتبع صدى الأحداث التاريخية في شعر تلك المرحلة، كما سيرى القارئ أني ركّزت على شعر ثلاثةٍ من كبار شعراء ذلك العصر، هم: الأعمى التطيلي، وابن خفاجة، وابن قزمان، مستفيدا في الوقت نفسه مما ورد من أشعار غيرهم في كتب التاريخ الأدبي التي أرّخت لتلك الحقبة.

وقد يعترض معترضٌ على الاستشهاد بأزجال ابن قزمان، بوصفها غير داخلة في الشعر الذي هو عنوان البحث، وإنما هي أزجال فحسب! وهو اعتراضٌ غير ناهضٍ؛ إذ إنّ أزجال ابن قزمان وغيره لا تخرج عن مظلّة الشعر، غاية ما في الأمر أنها كُتبَت بالعامية، واحتفظت لنفسها بمقومات الشعر الكلاسيكي من وزن وقافية وصور وأخيلة، وإنّما أُفرِدَت بالتسمية لتتميّز من قسيميها: الشعر الفصيح والموشحات.

الحالة السياسية والأدبية العامة في عصر المرابطين:

بعد أن قضى يوسف بن تاشفين –زعيم المرابطين– على ملوك الطوائف، رجعت الأندلس دولةً واحدة، وتوحدت مع المغرب في ظلّ أمراء مغاربة عرفوا بالمرابطين أو الملثمين.

ولقد كان لقيام تلك الدولة في الأندلس آثار سياسية واجتماعية واقتصادية وأدبية، فعلى الجانب السياسي تمكّن المرابطون من صدّ النصارى، وانتزاع كثير مما كان في أيديهم من مدنٍ إسلامية كانت قد سقطت إبّان عصر ملوك الطوائف؛ الأمر الذي حقق للأندلس استقرارا سياسيا، وأطال عمر الوجود العربي الإسلامي فيها عدة قرون أخرى[1].

أما على الجانب الاجتماعي، فقد ترك المرابطون آثارا بعيدة الأثر؛ إذ «ظهرت طبقة جديدة من الملثمين، طائفةٌ سيدةٌ، حاكمة، ذات حولٍ وطولٍ وسلطان، انتشرت في مدن المغرب وأقاليمه، وفي مدن الأندلس وأقاليمه، يتولون الأعمال، أو يزاولون

التجارة، أو الزراعة، أو الصناعة» [2].

هذا الأمر يعني استيلاء أولئك المرابطين الجدد على مقاليد الاقتصاد، إضافة إلى استيلائهم على الأمور السياسية والعسكرية، مما جعلهم يتحكمون في الناس كما يريدون، ويأنفون من الخضوع لأحكام القضاة، مما جعل (أمير المسلمين) يكتب لأحد القضاة مطمئنا إياه:«وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك في كلّ حقٍّ تقضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاءٍ تقضيه» [3].

ولقد أشاعت طبقة الملثمين الخوفَ في قلوب الأندلسيين، وتعدّت سلطة الملثمين إلى عبيدهم وحشمهم، فكان هؤلاء يتشبهون بأسيادهم فيتلثمون، ويرتكبون الشرور والآثام؛ الأمر الذي أثار حفيظة الكاتب ابن عبدون، فقال: «يجب ألاّ يلثم صنهاجيٌّ أو لِمْتونيٌّ أو لَمْطيٌّ؛ فإنّ الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس، ويهيبونهم ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام» [4].

وقد تمكّن هذا الخوف من قلوب الأندلسيين، فامتنعوا عن المطالبة بأقل الحقوق، المتمثلة في لقمة الخبز، رغم جوعهم واشتياقهم إليه، وقد صوّر ابن قزمان في أزجاله حالة الخوف هذه أصدق تصوير، فقال[5]:

قد رجعت الآن باطل / منذ غاب الخبز عني
ويْ عقل يبقى لعاقل / والنشير[6] بعيدهُ مني
ونراه في الفرن داخل / وإذا خرج نغنّي
قد خرج محبوبِ برّا / ونريد ولسُّ نجرا
ويقلي قلبي اهجم / ونخاف من الملثم

ولعلّ حالة الخوف هذه كانت أحد أسباب سقوط دولة المرابطين، فقد حصر أحد الباحثين تلك الأسباب في «انعدام الأنظمة والتجديد في الدولة، فنظام الضرائب كان سيئا، ونظاما الإدارة والجيش كانا أسوأ بكثير، فالأمن استتبَّ خوفا من البطش والقمع، وليس احتراما وتوقيرا للقانون والنظام، والأنظمة الإدارية كانت مفقودة، والحكم كانت تسيِّره فتاوى الفقهاء واجتهاداتهم»[7].

حالة الشعر في عصر المرابطين

اعتنى الأندلسيون بالشعر كثيرا، فبدأوا مقلدين للمشرقيين، ثمّ ما لبثوا أن ابتدعوا طرقا شعرية كانت وليدة بيئتهم الساحرة، وكانت حال الشعر تتأرجح عُلُوّا وانخفاضا تبعا للظروف السياسية التي مرّ بها ذلك القطر، ويصف المقّري حال الأندلسيين والشعرَ، فيقول: «والشعر عندهم له حظٌّ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويُوَقَّعُ لهم بالصِّلات على أقدارهم، إلاّ أن يختلّ الوقت، ويغلب الجهل في حين ما» [8].

وقد بلغ الشعر الأندلسي ذروته أيام ملوك الطوائف؛ إذ حظي الشعراء بمنزلة عظيمة لدى الملوك، حتى كان المعتمد بن عبّاد « لا يستوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعرا حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحدٍ قبله»[9].

من أجل ذلك راجت سوق الشعر، وبرزت أسماء لامعة في هذا الميدان، مثل ابن زيدون، وابن اللبانة، وابن حمديس، وابن وهبون، وغيرهم كثير، ولما استولى المرابطون على الأندلس، ركدت ريح الشعر، وبارت تجارة الشعراء، وصاروا يتكففون الناس؛ ليجودوا عليهم بما يسدّ رمقهم، ويستر عوراتهم.

وقد وجد بعض الشعراء خلاصهم كامنا في هجر الشعر، والاشتغال بغيره من الأمور، وقد وصف ابنُ بسّام أبا حاتم الحجاريّ بأنه «شاعر متصرِّف في النظم والنثر، ولما انقرضت أيام ملُوك الطوائف بالجزيرة، وتسلّط الكساد على أعلاق الشعر الخطيرة، خلع أبو حاتم بردته، وسَلَخَ جِلدته، وأصبح بحاضرة قرطبة صاحبَ طَوْلَقٍ وحنبل، وجلس بين هاون ومنخل، يأخذ للصحة من المرض، ويتكلّم عن الجوهر والعرض... كلّ ذلك حرصا على الحياة، واحتيالا لهذه الملابس والأوقات»[10].

وإذا كان لأبي حاتم هذا مهنة أخرى يلجأ إليها، فإنّ الحظَّ لم يسعف غيره من الشعراء؛ إذ لم تكن لهم سلعة غيره. ولذا، لم يجنوا منه سوى الحرمان، يقول الأعمى التطيلي[11]:

أنا الذي أجتني الحرمان من أدبي إنّ النواظر قد تُؤْتَى من النظر

ولعلّ في أخذ التطيلي بيت المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

موازنةً بين حال شاعر العربية، والحظوة التي لقيها عند سيف الدولة وغيره، بسبب شعره وشاعريته، والحال التي وصل إليها الأعمى التطيلي من فقر وحرمان، جسّده بقوله[12]:

الحمد لله وشكرا له لا طارفٌ عندي ولا تالدُ
صرتُ ولا أُنْبيكَ عن غائبٍ في حالة يرثي لها الحاسد
إنْ ينبُ بي دهريَ فالله لي والمترجّى للندى خالد
يا واحدا أفضاله شركةٌ فينا ولكن مجده واحد
حوليَ أفراخٌ كزغب القطا ليليَ من همٍّ بهم ساهد
أنتَ أبٌ لي ولهم عاطفٌ رُبَّ ابنِ خمسين له والد

لقد صورت هذه الأبيات شظف العيش الذي يعانيه الشعراء في ظل دولة المرابطين، فقد أُهْمِلَ الشعراءُ فافتقروا، وصار أحدهم لا يطلب مالا ليرفِّهَ به عن نفسه، وإنّما كان قصارى ما يطلب الخبز ليسدّ رمقه، ويحفظ حياته.

ونجد عند ابن قزمان تصويرا لحالة العوز وضيق ذات اليد، التي صورها الأعمى في قوله السابق، إذ يقول ابن قزمان[13]:

ليتْ كما لسْ ماعِ لقمة / كتَّكون دقيقة فالبيت
إذ كَنَّعمل لي عصيدة / إنْ وجدتُ نقطة من زيت
إنّما حُطَيْبَ لسْ باه / كل ما يعوز لي سميت
ولو اصبح لي كُسَيْرَة / الكُسَيْرَة كَنَّحَمّص

فليس غريبا أن يوازن الشعراء بين حالهم في دولة المرابطين وفي غيرها من الدول، وبخاصة دولة ابن عبّاد، بل إنّ الشعراء ينطلقون من تلك الموازنة إلى تمني رجوع دولة المعتمد؛ لترجع دولة الشعر برجوعها، يقول ابن قزمان[14]:

وايّ غلام كنّكون ماعك شاعرٍ أديبْ

وان أردت الغِنا تسمع شيئا عجيب
في غير ذي الدولة كَنَّرْكب على نجيب
لو انّ يسمعني فالتغريد المعتميد

وفي المعنى ذاته يقول أبو بكر محمد الأعمى المخزومي، المتوفى سنة 540هـ[15]:

وأهونُ ما أهدى الزمان إليـــكم فلا عشتم للّوم طلعةُ شاعـــرِ
فأين الألى كانوا إذا جاء نـــاظمٌ تلقّته منهم بالندى كفٌّ نـــاثر
سلام عليهم كلّما ارتحت نحوهم فلا أثرٌ من بعدهم للمـــــآثر
أُعيّركم جهـدي بكلّ قبيـــــحة وما لكم من يقظةٍ بالمعايـــــر
ركنتم إلى الأعذار في كلّ حـاجةٍ فهل نفعت نبلي حصون المعاذر

ولنا أن نتساءل عن أسباب هذه الانتكاسة الشعرية في ظل دولة المرابطين، فما الذي جعل الشعر يتقهقر إلى الوراء؟

لقد عزا الأستاذ إحسان عباس ذلك التراجع إلى «عدة عوامل، منها الاختلال السياسي في عصر ملوك الطوائف نفسه، ومنها الالتفات إلى الجهاد في عصر يوسف ابن تاشفين بخاصة، واعتباره الغاية الأولى في الدولة، واصطباغ الدولة بالصبغة الدينية، وضعف الرابطة بين الممدوح الذي لا يحسن تذوق الشعر البليغ، وبين الشعر نفسه»[16].

ولنا أن نناقش هذا الذي ذهب إليه إحسان عباس، وعزا إليه أسباب ضعف الشعر في تلك الحقبة وتراجعه، فنقول: إنّ الاختلال السياسي في عصر ملوك الطوائف كان أحد العوامل الرئيسة التي أدت إلى ازدهار الأدب بصورة عامة، والشعر بصورة خاصة؛ إذ كان ملوك الطوائف يحرصون على تقريب الشعراء منهم ليمدحوهم، ويظهروا فضائلهم وينشروها بين الناس، ويصوروا للناس أنّ هذا الملك أحقّ بالمُلك من خصمه، وهذا أمر أدى إلى كثرة الشعراء المجيدين في ذلك العصر، أعني عصر ملوك الطوائف.

وأما عدُّهُ الالتفات إلى الجهاد في عصر يوسف بن تاشفين، واعتباره الغاية الأولى

في الدولة سببا من أسباب انتكاسة الشعر في ظل دولة المرابطين فغير مسلَّم به؛ إذ قصارى ذلك أن تتراجع بعض أغراض الشعر، كالغزل أو وصف الطبيعة مثلاً، لتظهر أغراض أخرى منسجمة مع روح الجهاد، كالشعر الحماسي، والإشادة ببطولات الجيوش والقادة، وتخليد انتصاراتهم.

وأما عزو السبب في ضعف الشعر إلى ضعف الرابطة بين الممدوح الذي لا يحسن تذوق الشعر، وبين الشعر نفسه، فالذي يبدو لي أن الرابطة قد ضعفت حقا بين الممدوح والشاعر نفسه، لا لأن الممدوح لا يتذوق الشعر البليغ، بل لسبب أكبر من ذلك يتمثل في المانع الفقهي، وهو ما سأوضحه في مناقشتي لموقف يوسف بن تاشفين من الشعر.

بقي من الأسباب التي ذكرها إحسان عباس سبب واحد، وهو اصطباغ الدولة بالصبغة الدينية، وأراني مؤيدا لهذا السبب، وجعله على رأس أسباب انتكاسة الشعر في ذلك العصر؛ وذلك لتصريح الشعراء أنفسهم به، ولعلّ أوضح تصريحٍ بذلك كان على لسان الأعمى التطيلي في كافيته المشهورة[17]:

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعه ... على أنها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثُلّت عروشهم ... فلا الفخر مختال ولا العزُّ تامكُ
إذا ابتدر الناس الحظوظَ وأشرفتْ ... مطالب قوم وهي سودٌ حوالكُ
رأيتَهُمُ لو كان عندك مدفعٌ ... كما كسدتْ خلف الرئال الترائك
فيا دولة الضيم اجملي أو تجاملي ... فقد أصحبت تلك العرى والعرائك
ويا «قام زيد» أعرضي أو تعارضي ... فقد حال من دون المنى «قال مالك»

وواضح أشدّ الوضوح أنّ الكناية في (قال مالك) إشارة إلى الفقهاء الذين جعلوا الاشتغال بفروع مذهب مالك الغاية الأولى من الحركة العلمية يومذاك، وقدّموا تعلّم تلك الفروع على كلّ شيء، حتى «نُسِيَ النظر في كتاب الله، وحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم»[18]، فأي مكانٍ يبقى للشعر والشعراء في مثل هذا الجو؟

ولعلي رسمت صورة معتمةً لجو الشعر يومذاك، حتى ليخيل للقارئ أنْ لا وجود لشعرٍ البتةَ، وأسارع فأقول: إنّ الأمر لم يخل من وجود فجواتٍ يتنفس فيها الشعراء،

فقد يُشمَلون بمكرمةٍ من القصر تسعد حالهم بعض الوقت، غير أني لم أقف إلا على روايةٍ واحدة في هذا الشأن، فقد روى الفتح بن خاقان في ترجمة أبي الحسن بن لسان «أنه استنجد الأميرَ الأجلَّ أبا إسحاق بن أمير المسلمين قائلا:

قل للأمير بن الأمير بل الذي ... أبدا به في المكرمات وفي الندى
والمجتني بالزرق وهي بنفسج ... ورد الجراح مضعَّفًا ومنضَّدا
جاءتك آمال العفاة ظوامئا ... فاجعل لها من ماء جودك موردا
وانثر على المُدّاح سيبك إنهم ... نثروا المدائح لؤلؤا وزبرجدا
فالناس إن ظُلِموا فأنت هو الحمى ... والناس إن ضلّوا فأنت هو الهدى

ويعلّق الفتح بن خاقان على هذه الأبيات بقوله: «أخبرني وزير السلطان أنّ هذه القطعة لما ارتفعت اعتنت بجملة الشعراء وشَفَعَت، فَأُنْجِزَ لهم الموعود، وأورق لهم ذلك العود، وكثر اللغط في تعظيمها، واستجادة نظيمها، وحصل له بها ذكر، وانصقل له بسببها فكر»[19].

مكانة الفقهاء في الدولة المرابطية

كانت حال الفقهاء مع الخلفاء والأمراء مضطربة غير مستقرة، فخليفةٌ يقربهم، وآخر يضطهدهم، ولم تقوَ شوكتهم كمثل ما قويت أيام دولة المرابطين، فقد رفع هؤلاء الفقهاءَ «إلى مراتب الرياسة، واستغلّ الفقهاء هذه الفرصة فبلغوا في ظلال المرابطين مطامحهم في الرياسة والسلطان، وأصبح القضاة في بعض النواحي حكّامَ الأقاليم، وأصبح الفقيه المشاور حاكما مدنيا إلى جانب القائد المرابطي، الذي كان حاكما عسكريا»[20].

ولم يكن هذا التقريب للفقهاء إلا ردّا للجميل الذي قدّمه أولئك الفقهاء للمرابطين، فهم الذين أفتوا بوجوب الاستنجاد بالمرابطين أول الأمر، وهم الذين أفتوا بجواز القضاء على ملوك الطوائف، كما فعل أبو جعفر القليعي، وأبو بكر الطرطوشي[21].

من أجل ذلك قربهم يوسف بن تاشفين، فإنه «لما ملك الأندلس جمع الفقهاء

وأحسن إليهم»[22]، أما ابنه عليٌّ فقد «اشتدّ إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء... فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس، ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم»[23].

وكذلك فعل تاشفين بن عليّ، الذي عاتب واليه على مرسية؛ لتهاونه وعدم إكرامه قاضي القضاة، يقول تاشفين بن علي موجِّها خطابه للوالي: «خبّرنا، أعزّك الله، كيف جاز أن يجتاز بكم الفقيه الأجلّ، القاضي الأعدل أبو بكر بن أسود... فتهاونتم بمثواه، ونمتم جميعا عن قِراه، كأنه مرّ منكم بفلاة، أو حطَّ على رفات، وجاز على قوم أموات... فلتعلموا مكان هذه الفعلة الفادحة، والفرطة الفاضحة، والله ولي الأعمالً الراجحة»[24].

نظرة الفقهاء إلى الشعر

وقف الفقهاء من الشعر موقفا صارما، وراحوا يؤطرون المواضيع التي ينبغي للشاعر الخوض فيها، وقسّموا الشعر، كغيره من الأشياء والموضوعات، إلى جائز ومحرّم ومكروه، فقد اتخذوا من قوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوونَ﴾[25] مدخلا ليقرروا أنه «لا ينبغي أن يكون الغالبَ على العبد الشعرُ، حتى يستغرق قولَه وزمانَه، فذلك مذموم شرعا»[26]، كما اتخذوا من الاستثناء في قوله تعالى ﴿إلا الذين آمنوا﴾[27] ذريعة ليحكموا أنّ «كلَّ شاعرٍ في الإسلام يهجو ويمدح من غير حقٍّ، ولا يرتدع عن قولٍ دنيءٍ فهم داخلون في هذه الآية، وكلّ تقي منهم يكثر من الزهد، ويمسك عن كلّ ما يُعاب فهو داخل في الاستثناء»[28].

وقد تحدث القرطبي في تفسيره عن الشعر حديثا فقهيا، فبيّن الشعر المستحسن والشعر المذموم، فالشعر «إن كان مما يقتضي الثناء على الله عزَّ وجلَّ، أو على رسوله، صلى الله عليه وسلّم، أو الذبّ عنهما، كما كان شعر حسّان، أو يتضمن الحضَّ على

الخير، والوعظ والزهد في الدنيا والتقلل منها، فهو حسنٌ في المساجد وغيرها»[29].

وأمّا الشعر المذموم «الذي لا يحلّ سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحّهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء، ويُفَسِّقوا التقيَّ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول... فهذا حكم الشعر المذموم، وحكم صاحبه، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجدٍ ولا غيره»[30].

وقد أفرد القرطبيّ لشعر التكسّب مبحثا خاصا، وحكم –تبعا للفقهاء– بتحريمه، انطلاقا من أن الشاعر المتكسِّب يفرط في المدح إذا أُعْطِيَ، وفي الهجو والذم إذا مُنِعَ، «فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم، ولا خلاف في أنّ من كان على مثل هذه الحالة فكلّ ما يكتسبه بالشعر حرامٌ، وكلُّ ما يقوله من ذلك حرامٌ عليه، ولا يحلّ الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه»[31].

ويسرف القرطبي في حكمه على الشاعر نفسه، سواء أكان متكسبا أم غير متكسب، فإنّ «الذي قد غلب عليه الشعر، وامتلأ صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد لهً، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنيئة؛ لحكم العادة الأدبية»[32].

إنّ هذه النظرة السلبية للشعر تجعله –لا ريب– يتقهقر إلى الوراء، خاصة إذا علمنا أنّ أصحاب تلك النظرة هم الذين يحركون الساسة والمجتمع، ويتصرفون فيهما.

وقد انعكس ذلك على الشعراء أنفسهم، فكبتوا ما كان يجول في خواطرهم من صور وأخيلة، وهجر بعضهم الشعر، واشتغل بغيره، وذلك إما احتراما لرأي الفقهاء، وإما خوفا من التضييق الذي يلحق بهم. ولعلّ في الرسالة التي بعثها ابن خفاجة إلى أحد الفقهاء دليلا على ذلك؛ إذ نجد ابن خفاجة يخاطب ذلك الفقيه بقوله: «ولولا أني نزّهت سمعه عن الشعر، لأريته كيف حوك الطبع المهذّب، للوشي المذهَّب،

وكيف لفظ بحر الفكر للجوهر البكر، ولأطلعتُ في سماء معاليه نجوما تنير، ورجوما تبير»[33].

وحقيق بالملاحظة قول ابن خفاجة (نزهت سمعه عن الشعر) بكل ما تحمله كلمة (نزهت) من قيم سلبية، فلا ينزَّه السمع إلا عن كلّ مرذول من القول مستقبح، والطريف في الأمر أن المنزِّه هو أحد كبار شعراء ذلك العصر!! ولعل في ذلك مؤشرا إلى حجم الضغط الذي كان الشعراء يتعرضون إليه من قبل الفقهاء.

موقف يوسف بن تاشفين وخلفائه من الشعر

نقلت كتب التاريخ الأدبي موقفين متباينين ليوسف بن تاشفين من الثقافة عامة ومن الشعر بوجه خاص:

فالأول يزعم أنّ ابن تاشفين قرّب العلماء والمثقفين إليه؛ إذ «انقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كلِّ علم فحولُه، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصرٍ من الأعصار»[34].

إنّ في تشبيه حضرة يوسف بن تاشفين بحضرة خلفاء بني العباس في صدر دولتهم ما لا يخفى؛ إذ بلغت الحركة العلمية والأدبية أوجها، حتى سُمِّيَ ذلك العصر –بحقٍّ– العصر الذهبي، ولا يجتمع كل أولئك الأدباء في حضرة أمير لا يفهم ما يقال، أو لا يكون له دور في نقاشٍ أو جدل حول مسألة تُطْرَح، أو رأيٍ يُفَنَّد.

وفي مقابل هذا الموقف الإيجابي، ينقل بعض مؤرخي الأدب موقفا سلبيا ليوسف بن تاشفين من الشعر؛ إذ رسم الشَّقُنديُّ لابن تاشفين صورة هزلية، قوامها جهل ابن تاشفين بالعربية وعدم تذوقه الشعر الفصيح؛ لجهله بمقاصد الشعراء، الأمر الذي جعل شعراء الأندلس يعرضون عن مدحه، لولا توسط المعتمد بن عباد، الذي سأله بعدما أنشده الشعراء: «أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال: لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخبز. ولما انصرف المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها:

بنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقا إليكم وما جفّت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلمّا قرئ عليه هذان البيتان، قال للقارئ: يطلب منا جواري سودا وبيضا؟ قال: لا يا مولانا، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا؛ لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلا؛ لأن أيام الحزن ليالٍ سود. فقال: والله جيد، اكتب له في جوابه: إنّ دموعنا تجري عليه، ورُءُوسنا توجعنا من بعده»[35].

لقد صوّرت هذه المحاورة بين ابن تاشفين وكاتبه جهل الأول بمقاصد العرب من كلامها، كما بيّن جوابه الذي يريد إيصاله إلى ابن عباد جهله بطرائق التعبير العربي؛ لذا لم يكن غريبا أن يجعله الشقندي غرضا لتهكمه وسخريته إذ قال: «ليت العباس ابن الأحنف قد عاش حتى يتعلّم من هذا الفاضل رقة الشوق!»[36].

والحقّ أنّ في هذه الرواية ما يبعدها عن الحقيقة؛ ويتجلّى ذلك في متنها؛ إذ تنصّ كتب التاريخ على أنّ هذه المحاورة المزعومة وقعت عندما اجتاز المعتمد البحر إلى المغرب لملاقاة ابن تاشفين والاستنجاد به، فكيف يخاطب المعتمدُ ابنَ تاشفين بـ(أمير المسلمين)، وهو لقبٌ جُعِلَ ليوسف بعد قضائه على ملوك الطوائف، وتسلمه ملك الأندلس؟

ولا بدّ من الانتباه لأمرٍ آخر، يضعف هذه الرواية؛ ذلك أنّ الإسلام مرتبطٌ بالعربية، فلا إسلام تامّا بلا عربية، فهي لغة القرآن، وإتقانها شرط في صحة الصلاة، وقد انتشرت العربية بانتشار الإسلام منذ أوائل الفتح، وصار المسلمون الأعاجمُ يقبلون على تعلّم لغة دينهم، وصار المتفقهون منهم من أبرع طلاب العربية نحوا وأدبا. وما سيبويه، وابن جني، ونفطويه، وأبو علي الشلوبين، إلا أمثلة على ذلك.

أفيعقل –والحال هذه– أن يكون يوسف بن تاشفين، وهو الملازم للفقيه عبد الله ابن ياسين الجزولي وغيره من الفقهاء، حتى قرّبوه وجعلوه من المقدَّمين، غير ملمٍّ بلغة العرب؟

فإن قيل: إنّ معرفة العربية للتعامل بها شيءٌ، ومعرفتها بوصفها لغة أدبٍ شيءٌ آخر؛ لما فيها من خروجٍ على مألوف الاستعمال، واتكائها على المجاز والاستعارة.

قلت: إنّ الفرق بين المستويين غير منكور، لكنَّ من يعرف كيف يتلقى الطلابُ علومَ الدين يدرك أنّ هؤلاء الطلاب ليسوا بعيدين عن الاستعمالات الأدبية للعربية، فهم حين يدرسون القرآن الكريم، وحديث الرسول –صلى الله عليه وآله وسلم– لا بدّ أن يقفوا على ما فيهما من مجازات واستعارات، ثمّ إنّ نظرة في كتب أصول الفقه ترينا مدى اهتمامهم بالمجاز وضروب الكلام الخارجة عن الاستعمال الأصلي.

ثمّ إنّ لنا في الوثائق التاريخية دليلا على معرفة يوسف بن تاشفين العربيةَ، فقد نقل الأمير عبد الله، آخر ملوك بني زيري بغرناطة، في كتابه الموسوم بـ(التبيان) صورة عن المجالس التي عقدها ملوك الطوائف مع يوسف بن تاشفين، وسجّل الوقائع فيها حرفيا، وكان الحديث يدور بين الملوك وبين ابن تاشفين دون وساطةٍ، ولا يكون هذا دون معرفةٍ بالعربية[37].

إذن، ما الذي حمل ابن تاشفين على قول ما قال في الشعراء؟ لا أراه فعل ذلك إلا استجابة لفتوى الفقهاء التي تحرِّم سماع شعر التكسب، فإنّ الشاعر المتكسِّب «لا يحلّ الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه». ومن هنا، نفهم إشارة ابن تاشفين الذكية (لكنهم يطلبون الخبز)، أي إنهم شعراء يتكسّبون بشعرهم، وكأنه يذكّر المعتمد بالموقف الفقهي من هذه الطبقة، وأنه لن يسمح بأن يكون لهم مقام في دولته.

وهكذا كانت سيرة من جاء بعده، فقد وضعوا الحُجّاب على الأبواب، ولم يجد الشعراء إليهم سبيلا؛ ولذا توسّلوا بمن لهم حظوة عند أولئك الأمراء، فها هو ذا الأعمى التطيلي يكتب إلى مالك بن وهيب، يذكِّره أمره، ويرجو قيامه بشأنه لدى أمير المسلمين[38]:

لعلّك قد أشجتك أخرى شكايـــة قضيتُ بأولاهـــا نحيبي أو نحبي
رفعتُ بها صوتا إذا شئت أحرقت بلابله مـــا انهلَّ من دمعي السكب
وبين أميـــــر المؤمـــــنين وبينه مضايقة الحجّاب أو هيبة الحجب

وإذا ما أفلح الشاعر في الوصول إلى الأمير المرابطي، وجد نفسه محاصرا لا يستطيع البوح بكل ما يختلج في نفسه؛ لتبرم الأمير منه، فلا يجد الشاعر مندوحة

من الاختصار، يقول ابن قزمان مادحا ابن تاشفين[39]:

لسْ لي إلا على سخاك تعويـــــلْ
وانت وحدك ولَسْ يوجد لك مثيل
ربّما ضرّك الكـــــــلام الطويل
أَهْـــــنَ نقطع كلامي جِدْ هُ بَعَدْ

وصاية الفقهاء على المجتمع وانعكاساتها على الشعر

بعد أن ثبّت الفقهاء أنفسهم لدى أمراء المرابطين، فرضوا وصايتهم على طبقات المجتمع: عامّته، وعلمائه، وشعرائه.

وتتجلّى وصاية الفقهاء على عامة الناس في الفتاوى بتحريم كثيرٍ من العادات الاجتماعية السائدة في المجتمع الأندلسي يومذاك، كتحريم الطرطوشي شراء الحلوى احتفالا بليلة القدر، وتحريم ابن الحاج تقديم الأطعمة والفواكه يوم عاشوراء، واعتبار ذلك بدعة، بل إنّ ابن عبدون نهى عن لعبة المقارع التي اعتاد عليها الأطفال، وكانت تحدث الهرج والصخب بالأزقة والشوارع[40].

أمّا وصايتهم على العلم فتظهر جلية عندما «قرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرَهم مَنْ ظهر عليه شيءٌ منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدّى أكثره إلى اختلال في العقائد»[41].

ولم يكتف الفقهاء بالقول، بل راحوا ينفذون عمليا تلك الفتاوى، ولعلّ محنة كتاب «الإحياء» خير دليل على ذلك، فقد جُمِعَت نسخ الكتاب وأُحْرِقَت سنة 503هـ[42]، وظلّ الكتاب ملاحقا إلى نهاية الدولة المرابطية[43].

يضاف إلى ذلك تحكُّمُ الفقهاء، وجعلُهم مذهب مالكٍ المذهبَ الوحيدَ، فلا يقبل غيره من المذاهب الإسلامية، بل إنّ من اتّبع غير مذهب مالك فقد اتبع هواه وركب رأسه[44]، ولا يخفى ما في ذلك من تضييق على العقل وحجرٍ على التفكير.

أمّا وصاية الفقهاء على الشعراء فتتمثّل في قسمين:أحدهما خاصٌّ، والآخر عامّ يشتركون فيه والمجتمع.

فأما الوصاية الخاصة على الشعراء فتتمثل في تقسيم الفقهاء الشعر، وجعلِ بعض أقسامه حراما، كشعر التكسب، ووصمهم الشاعر المتكسِّبَ بأنه ملازم للأوصاف المذمومة، وتحديدهم الموضوعات التي ينبغي للشعراء أن يقولوا شعرهم فيها، كشعر الزهد والدعوة إلى الله، والحث على التقوى، أي إنهم أرادوا تحويل الشاعر إلى خطيب واعظ، ولا يخفى ما في ذلك من تضييقٍ على الشاعر، وحبس الملكة الإبداعية لديه.

ويبدو أن الفقهاء كانوا يستعملون سلطتهم فعلا، (فيؤدّبون) من يخرج من الشعراء على ما رسموه، وهذا ما يفهم من قول ابن قزمان[45]:

لولا ما أنتَ قاضٍ / ونخـــــاف أن نؤدَّب
كنّقول الخطّ يو / سف و هُ الحق ليعقوب

وأمّا الوصاية العامّة التي طبقها الفقهاء على الشعراء وغيرهم من طبقات المجتمع، فتتمثل في ملاحقة الفقهاء كلّ ما يتعارض –حسب رأيهم- والشريعةَ الإسلامية، وبخاصة الخمر والخمارات، وقد بدا ذلك واضحا في رسالة (أمير المسلمين) إلى فقهاء بلنسية؛ إذ أمرهم بملاحقة الخمر وإراقة دنانها[46].

ولقد طبّق الفقهاء العقوبة على شارب الخمر، وتفننوا في العقوبات، حتى إن الفقيه ابن العربي ظلّ «يوالي التشدّد والتسلّط حتى ثقل على الفساق والأشرار فهاجوا»[47].

وينقل ابن عذاري صورة من تشدد ابن العربي، واختراع أنواع العقوبات، فقد «كان له في عقاب الجناة اختراعات مهلكات ومضحكات، فانتدب أنفسا جمّة صلبا وضربا، وسيق إليه أحد الزَّمَرَةِ[48] فأمر بضرب يديه وثقب شدقيه، فانبطلت الحكمة عليه»[49].

في هذا الجو المشحون بالخوف لا يستطيع شاعرٌ أن يطلق لنفسه العنان، فيشرب أو يتخيّل أنه يشرب، ويبوح بمكنونات نفسه، خاصة بعد أن حُرِمَ من الحانات، والمتتبع لحركة الأدب العربي يجد أن كثيرا من الأدب الراقي إنما ارتبط بالخمر، سواء في وصف حانات الخمر وما يجري فيها، أم في وصف مجالس الشراب الخاصة وما يدور

فيها من لهو وعبث بالقيان وغيرهن، كما يجد المتتبع للشعر العربي في أزهى عصوره أنّ كثيرا من الشعراء صرفوا همتهم في وصف الخمر وأنواعها، وما تفعله بالشارب إذا دارت في رأسه، وإنّ نظرة في ديوان أبي نواس أو الحسين بن الضحاك –على سبيل المثال– لتبرهن على ذلك.

من هنا، نفهم السبب في الحرب المشتعلة بين الفقيه والشاعر، تلك الحرب التي كانت الخمرُ محورها، يقول ابن قزمان[50]:

بيني وبين الفقي جاري فالكاس حروب
في ايّام الخس والبسباس تحلا الذنوب

ونرى ابن قزمان يحذِّر أصحابه ورفاقه في الشرب، ويوصيهم بالكتمان؛ كي لا يسمع الفقيه خبر سكرهم[51]:

اسكت اسكت هذا الخبر يمضغ
وقلاد هُ في عنق من بلّغ
إنْ دراها محمد بن أصبغ
خمسُ متّ سوط يحسّر البراح

ويبين ابن قزمان في هذا الزجل نفسه تدخُّلَ الفقيه، وتحقيقه مع الناس؛ ليتأكّد إن كانوا قد شربوا الخمر أم لا، ولا يبخل ابن قزمان بتقديم النصيحة لمن يقوده سوء حظه فيقف مع الفقيه هذا الموقف[52]:

وإذا كنت معْ فقيه أو إمام
ويقولك: شربت قط مدام؟
قُلُّ: اشّنّهُ يا فقي ذا الكلام؟
بالله ما ذقت قط شراب تفاح.

ويبدو أنّ ابن قزمان –لفرط ولعه بالخمر ومعاقرتها– امتلك الدربة في مراوغة الفقيه؛ لذا يعلن صراحة أنه لا يخشاه، كما يعلن أنه سيظلّ يشرب الخمر، ولو وقف على رأسه الفقيه الغزالي نفسه[53]:

يخشى الفقيه كل مَن لا يَدْرُبْ
أنا نوقّر فقيه أو نهرُب؟
جقجقة أم الذي لس يشرب
لو كان على راسي الغزّالي.

إنّ هذا التحدي السافر لسلطة الفقهاء من قبل ابن قزمان هو الذي حملهم على الحكم عليه بالقتل، لولا تدخل محمد بن سير الذي أنقذه[54]:

للقتل كان رفعني / ولد ابن المناصف
وعلّمني منافق / وحسبني مخالف
لس عندك مصيبة / لو خرج روح واقف
ونرى السيف بعيني / لِقُطوع راسَي يُجْبَذ

أثر البيئة الفقهية في الصور الشعرية

تحدثت فيما مرّ عن تركيز فقهاء المرابطين على الفروع الفقهية في مذهب مالك، وأنهم قدّموا تعلمَ تلك الفروع على كل درسٍ آخر، حتى نسي النظر في القرآن والحديث، على حدّ تعبير عبد الواحد المراكشي.

ومن البدهي أن يكون لهذا التوجّه الفقهي أثر في شعر تلك المرحلة، خاصّة إذا علمنا الوصاية التي فرضها أولئك الفقهاء على الشعراء، وتحديدهم ما يجوز، وما لا يجوز في الشعر.

وقد برزت كثير من الصور الشعرية مرتبطة بالأحكام الفقهية، كالصلاة والصيام والحج وغيرها، ومن ذلك على سبيل التمثيل قول ابن خفاجة[55]:

يا رُبَّ قطرٍ جـــــامد حلّى به نحر الثــرى بَرَدٌ تحدّر صائبُ
حصَبَ الأباطحَ منه مــاءٌ جامدٌ غشّى البــلاد به عذابٌ ذائبُ
فالأرض تضحك عن قلائد أنجم نُثِرَتْ بهــا والجوُّ جهمٌ قاطبُ
فكأنّما زنت البسيـــــطة تحتهً فأكبَّ يرجمها الغمام الحاصبُ

لقد أحسن ابن خفاجة وهو يرسم صورة البرد النازل على الأرض، تلك الصورة

المتلألئة الطافحة بالجوهر المنثور على الأرض، لكنه اعتسف الطريق؛ إذ أخرج المتلقي إلى صورة بشعة مستكرهة تنقله إلى جو الزنا والخيانة، بكلِّ ما يحمله ذلك الجو من معانٍ قبيحة، لينهي الصورة بجوٍّ أشدَّ قتامةً، وهو الرجم المؤدِّي إلى الموت.

ويظهر أثر البيئة الفقهية كذلك في قول ابن خفاجة:

ألا طمَّ بحـــرُ أَتيٍّ طما ... وأجرى كفيٍّ سماءٍ تجــودْ
فأهوتْ تخرُّ هناك البُنى ... كما تتلقى الملوكُ الوفــودْ
وباتت كأنَّ عليها صــلاةً ... فبعضٌ ركوعٌ وبعضٌ سجودْ

لقد صوّر ابن خفاجة هذا البناءَ الذي طما عليه السيل، فأخذت شرفاته تتهاوى الواحدة تلو الأخرى بالمصلي الذي يهوي مرة راكعا وأخرى ساجدا، ووجه الشبه الملحوظ هنا هو حركة الاثنين فقط، دون ملاحظة أنّ المصلي يخرّ راكعا وساجدا بإرادته، في حين تتهاوى تلك البنى مكرهةً بسبب السيل الذي غمرها.

ومن الصور التي أثرت فيها بيئة الفقهاء، قول ابن خفاجة بعد استرجاع بلنسية من يد العدو[56]:

وأفشعَ الكفرَ قسرا عن بلنسية ... فانجاب عنها حجابٌ كان منسدلا
وطهَّرَ السيف منها بلدةً جُنُباً ... لم يجزها غير ماء السيف مغتسلا

وتتكرر صورة الصلاة عند شعراء تلك الحقبة، كما يتجلى ذلك عند الأعمى التطيلي، فها هو ذا يتحدث عن قصائده التي ساقها في ممدوحه علي بن يوسف بن تاشفين قائلا[57]:

أنا ممن أهدى إليك القــوافي ... غيرَ وحشيةٍ ولا أَهْمـــــالِ
كنجوم السماء يطلعن في الكتب ... ويغربن في صدور الرجـــالِ
جادها في بلادها رائدُ الوبـــل ... فأغنى عن نُجْعَةٍ وارتحـــالِ
وأقيمت لها الصـــــلاة بذكرا ... ك فكانت صلاتها في الرحالِ

ويقول في مدح ابن حمدين:

أَعِدْ نظرةً في صادق الودِّ غَضِّهِ ... يواليك إلظاظَ الحجيجِ بزمزمِ

تيمَّمَ حتى عاينَ الماءَ مطلقًا فهل تُجْزِيَن عنه صلاة التيمّم

وفي مدح الشخص نفسه، أعني ابن حمدين، يقول ابن قزمان[58]:

لا سرور لحدّ إلا / أن يديم الله سرورك

لسْ يرى في وجه احد نور / حتى يستضي بنــورك

من طلب كسب المعالي / وامتنع من ان يـــزورك

هذا هُ بحال من اسقط / فالصلاة تكبير الاحرام

ومن مظاهر تأثير الفقهاء على الشعراء مخاطبة الشعراء إياهم بمصطلحاتهم الفقهية، إذ تتردّد على ألسنة الشعراء الكثير من المصطلحات والتعبيرات التي يتداولها الفقهاء، ومن ذلك قول أبي بكر الخولاني المنجِّم، يشفع لأحد السكارى[59]:

إنّ درْءَ الحدود بالشُبُهات لَحديثٌ رواه كلُّ الثقـــات

ما أراه إلا تناول تفـــــا حًا فنمَّتْ عليه في الطرقات

نفحات التفاح والراح والأترجِّ للمرء جدٌّ مشتبهـــــــات

فبتلك الشمائل المخجلات الروضَ غبَّ الغمائم الهــاطلات

وبحلم إليه مذْ كنتَ تُعْزَى وبصبـــــر تُعْزَى له وأناة

اعفُ عنه وأعفه من ثمانيـن تدمِّي أعطافَـــــه المائســات

وأقلْ ذنبه وعثـــــرته فهو بمـــرآهُ من ذوي الهيـــئات

ويلاحظ في هذا المقام أنه كلّما ازدادت صلة الشاعر بالفقيه ازدادت الصور المستوحاة من البيئة الفقهية عنده، ولعلّ هذا ما يفسر شيوع هذه الصور في شعر ابن خفاجة إذا ما قارنّاه بالأعمى التطيلي وابن قزمان.

صورة الفقيه في الشعر المرابطي

تحول الفقهاء في عصر المرابطين –بسبب سيطرتهم على مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية– إلى موضوعٍ شعري مستقل؛ إذ صار الناس –ومن بينهم الشعراء– يقصدونهم بغية الحصول على بعض المال، أو الوصول إلى درجات عالية في المجتمع.

وكان من البدهي أن تدبَّج المدائح فيهم، وأن تُضفَى عليهم كثير من النعوت والصفات الإيجابية في سبيل استدرار ما في أيديهم، خاصة إذا علمنا حالة الجوع والحرمان التي يمرّ بها الشاعر، واحتياجه إلى الفقيه الذي بيده كلّ شيء، يقول ابن قزمان:

يا فقي القمح غالي / والدقيق أغلى واغلى
والبطن كما في علمك / بلا خبز لسّ يُخَلّى
وغدًا لا شك نسعى / إلا ان كان شي من اللّه
فإذا اعطيت بفضلك / بالنبي عجّل وروِّج

وربّما أعرض أولئك الفقهاء عن بعض الشعراء القاصدين، أو رأى الشعراء سيطرة الفقهاء على كل شيء، فغاظهم ذلك، وثاروا عليهم، ونعتوهم بأسوأ النعوت.

وبين المادح والهاجي تتجلى صورة الفقيه تلك الأيام، وسأستعرض أولاً صفات الفقيه الإيجابية:

لقد أضفى الشعراء على ممدوحيهم من الفقهاء نعوتا إيجابية كثيرة، منها التقدم في العلم، وسعة الحفظ، والشجاعة والإقدام، والجود والكرم، وغيرها.

إن هذه الصفات مبثوثة في كثير من القصائد الطوال، بل لا تكاد تجد ناظما ولا شاعرا في ذلك العصر لم يتعرّض إلى مدح فقيه من الفقهاء.

أما صفة العلم فقد ركّز عليها الشعراء، وجعلوها أول صفات الممدوح؛ إذ بهذه الصفة يتميز الفقيه من غيره، كما يستحق بها أن يتقدم على غيره من الفقهاء، فيكون قاضيا أو ما شابه ذلك، يقول ابن خفاجة مادحا الفقيه ابن حمدين[60]:

أحسنْ بقرطبةٍ وقد حملت به ... حسن الفتاة ولبس خلق العانسِ
وتتوَّجَتْ بمنار علم ساطعٍ ... قد قام فوق قرار ديـنٍ آنسِ

ويقول الأعمى التطيلي[61]:

إيهٍ أبـا بكرٍ وهـذي المنى ... تَفْتَنُّ منـها في أفـانينِ
يا جملةَ العلمِ وتفصيـلَهُ ... من كلّ مفـروضٍ ومسنـون

إنْ جيءَ قومٌ بدواوينهم فأنتَ ديوان الـــــدواوينِ

وإذا كانت صفة العلم فيما تقدّم من أبياتٍ مطلقةً، فإنها أكثر تحديدا عند ابن قزمان، فالعلم كامنٌ في حفظ المتون، يقول في مدح الفقيه أبي يونس بن مغيث[62]:

ويحفظ المدوَّنْ ظاهر
ولسْ لعلمه بالسُّنة آخر
افخرْ فإنَّ معك مفاخر
بالله يا أخي غاية ما ابقيت

ويقول في مدح فقيه آخر[63]:

واذا اتكلّم لسْ يغلبُ غالبْ
بين يديه يرجع ابن بجّا طالب
والحديث يدري من أمرُ غرايبْ
تراه «قال مسلم» و «قال البخاري»

فالفقهاء –حسب تعبير ابن قزمان– ليسوا فلاسفةً فحسب، وإنّما يكون فلاسفة ذلك الزمان، كابن باجّة، طلابا يتعلمون منهم، يضاف إلى ذلك حفظهم كتب الصحاح، وبخاصة صحيح مسلم وصحيح البخاري، كما لا تخفى الإشادة بحفظ كتاب المدونة عن ظهر قلب، وهو كتاب في الفقه على مذهب مالك.

أما الصفة الأخرى التي يضفيها الشعراء على ممدوحيهم من الفقهاء فهي صفة الشجاعة؛ فالفقيه فارس حربٍ مقدام، مرهوب الجانب، يقول الأعمى التطيلي مادحا الفقيه ابن حمدين[64]:

المُعَلَّى من القـــداح وذو الأثْرِ المحلّى بين الواضي الرقـاقِ
وقريع الأيام ذو نجدةٍ تمضي وشمس النهار في الإشـــراقِ
أَسَدٌ يملأ العرين من البـــأ سِ وطودٌ يحمي من الإملاقِ
وفتًى مثلما يشقُّ على الحسادِ ماضٍ يـــوم الكريـــهة واقِ

ويقول ابن خفاجة في مدح الفقيه أبي أمية[65]:

فما شئتَ من سيّـدٍ أَيِّدٍ يصُدُّ العـــــدى ويسدُّ الثُّلَمْ
يغار ويمنع من غـــارةٍ فيحمي الحريمَ ويرعى الحرمْ
يسدِّدُ حتى صدور القنا ويضرب حتى رؤوس البُهَـــمْ

وإنما ركز الشعراء على إبراز صفة الشجاعة في ممدوحيهم من الفقهاء؛ لأنّ هؤلاء الفقهاء كانوا يخرجون للحرب، ويشاركون في القتال إلى جانب الأمراء الملثمين[66]، ويصف ابن قزمان خروج الجيش وقتال (رذمير)، ويبين مكانه في ذلك الجيش؛ إذ لم يفارق الوزير ولا الفقيه[67]:

وأنا على فرس / بثيـــابي الكبـــار
بين وزير وبين فقيه / لسّ نزول بَلّقار

والعدل من صفات الفقيه التي لا تفارقه، وإنما يُعرف العدل باقترانه به، يقول ابن خفاجة مادحا أبا أمية[68]:

عدلٌ يظلُّ بظلّه ذئب الغضا جارا هناك لظبية الوعساء
وكفاهما أن يخلـــوا بأراكةٍ عند المقيل ويشربا من ماء

فعدل الممدوح لم يشمل البشر حسب، بل تعداهم؛ ليشمل البهائم التي تخلّت عن طبيعتها القائمة على الافتراس.

أما الصفة التي يتفنن الشعراء في إبرازها في الممدوحين فهي صفة الكرم والجود؛ إذ هي صفة نجدها في كلّ فقيهٍ ممدوح، وإنما ركّز الشعراء على هذه الصفة الحميدة؛ بغية أن يجود عليهم الممدوحون، وفي ذلك يقول ابن خفاجة مادحا الفقيه أبا أمية[69]:

وحسبك من أوحـــدٍ أمجدٍ تباهي به العرب صِيدَ العجم
سنيّ العطايا حفيّ التحايا عليّ السجـــــايا وفيّ الذمم
يُنوِّر بالبشر أخـــــلاقه ويجري بكفيـــــه ماء الكرم
ويهتزّ للضيف خدّامـــــه وتعدي سجايا الموالي الخدم
فـــزره تزر روضةً غضّة وحيٍّ تجد هِزةَ الـــروضِ ثَمْ

ويقول في مدح الفقيه أبي العلاء بن زهر[70]:

ولله درُّ أخـــي ســـؤددٍ رسا هضبةً وسرى كوكبـــا
تصوب السماء إذا ما حبا ويمثُل رضوى إذا ما احتبى
وتعشو الضيوف إلى نـــاره فتلقى هنـــاك ألا مرحبا

أما الأعمى التطيلي فيقول في الفقيه ابن حمدين[71]:

أريحيٌّ تراه يهتزّ للبـــــذ لِ اهتزاز القضيبِ للإيراقِ
راكدٌ مثل صفحة الماء أورى عن ذكاءٍ كالنار في الإبراق
مستبدٌ بالمجد هشَّ إلى الجو دِ مطيقٌ للأمر غير مطاقِ
دربٌ بالإحسان مُثْرٍ من الحسنى أقام العلا على كلّ ساقِ
وكفيلٌ بالعدل والجود مشدو دُ الأواخي ممزِّق الإمـلاق

فإذا أبطأ الممدوح بالكرم على الشاعر، عاتبه هذا الأخير وذكّره بحاجته، فلما أبطأ ابن حمدين على الأعمى قال[72]:

أبا قاسم خذها عتـــاب تذلّلٍ وربّتما كـانت عتـــاب تبـــرّم
أتمضي الليـالي لا تقضّي مآربي ولو شفّني همي بهـــا وتهمّمي
أجدّك لم تعجَبْ لجدب مسارحي بحيث رأيت الروض رطب التنمنم
وكم نطفةٍ من مـاء وجهي أرقتها بـودّيَ لو أني أرقـــتُ لها دمي
وما لمت نفسي يوم جئتك مـادحا ولكنه من يحـــرم اللّه يُحـــرَم
أأكسر قوســـي بعد علمي بـأنني رميتُ فما أخطيـت شاكلة الرميَ

ثانيا: الصفات السلبية:

صبَّ بعض الشعراء جام غضبهم على الفقهاء، وهم يرونهم يثرون على حســاب الفقـــراء، ويرونهم لا يتورعون عن قبـــول الرشى، والحكم بما لم ينزل الله به سلطانا، ولذلك فالفقهاء –في نظر الشعـــراء– سرّاق للمال، لا يستحقون المناصب التي وضعوا فيها.

ومن الصفات السلبية التي ألصقها الشعراء بالفقهاء اتخاذ الفقهاء من العلم

وصورة الزهد طريقا لنهب الناس، يقول ابن خفاجة في هذا المعنى[73]:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم ... فيها صدور مراتبٍ ومجالسِ
وتزهّدوا حتى أصابوا فرصةً ... في أخذ مال مساجدٍ وكنائسِ

وفي المعنى نفسه يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني[74]:

أهل الرياء لبستمُ ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتمُ شهب الدواب بأشهبٍ ... وبأصبغٍ صبغت لكم في العالم

أما الصفة السلبية الثانية في الفقهاء فهي صفة الجشع، التي سوّغت لهم الإفتاء حسب مصالحهم الخاصة، فهم يضيّقون على من لا يملك شيئا، أمّا من يقدم لهم الرِّشى فإنهم يفتونه بما يوافق مصلحته، وفي هذا المعنى يقول ابن الطراوة[75]:

إذا رأوا جملا يأتي على بُعُدٍ ... مدّوا إليه جميعا كفَّ مقتنصِ
إنْ جئتهم فارغا لزّوك في قَرَنٍ ... وإن رأوا رشوةً أفتوك بالرخَصِ

وقد هُجي الفقهاء بصفةٍ ثالثة، وهي النجاسة، فإنّهم أنجاس حتى إنّ ظلّ أحدهم لينجس الشمس، وحتى إنّ الوضوء ليبطل بمجرد ذكر اسم الفقيه، يقول أبو بكر يحيى ابن سهل اليَكِّيّ –هجّاء المغرب[76]:

أعدِ الوضوء إذا نطقت به ... متذكّرا من قبل أن تنسى
واحفظ ثيابك إن مررتَ به ... فالظلُّ منه ينجِّس الشمسا

وقد نُعتوا بصفةٍ أخرى وهي النحس، فمتى ما دعوا بحاجة وقع ضدُّها، فقد خرج الفقهاء "ليستسقوا على أثر قحطٍ، في يومٍ غامت سماؤه، فزال ذلك عند خروجهم، فقال ابن الطراوة:

خرجوا ليستسقوا وقد نشـأتْ بَحْـرِيَّةٌ ممَّن بها السَّـــحُّ
حتى إذا اصطفوا لدعـــوتهم وبدا لأعينهم بها نضـــح
كُشِفَ الغمامُ إجـــــابة لهم فكأنما خرجوا ليستصحوا "[77]

وأخيرا فإنّ اليكيّ يجمع خصال الفقهاء قائلا[78]:

ثماني خصالٍ في الفقيه وعرسه وثنتان والتحقيق بالمرء أليَـــقُ
.....
ويكذبُ أحيانا ويحلف حانثا ويكفر تقليدا ويرشى ويســـرق
وعاشرة والذنب فيها لأمّـــه إذا ذُكِرَت لم يبقَ للشتم منطقُ

وبعد،

فقد بقيت مفارقة واحدة لا بدّ من الوقوف عندها؛ فإنّ كثيرا من أولئك الفقهاء الذين عرضنا إلى موقفهم المتشدد من الشعر والشعراء كانوا شعراء كذلك! وإنّ من يتتبع كتب التاريخ الأدبي كالمطمح والذخيرة والنفح وغيرها يجد كثرة كاثرة من شعر أولئك الفقهاء، فكيف يمكن التوفيق بين رأيهم وفعلهم؟

تلك دراسة ينبغي أن تكون مستقلة، يُبْحَثُ فيها موضوع (شعر الفقهاء) بعد جمعه من مصادره، وتقسيمه حسب موضوعاته، ودراسة أساليبه، ولعلّ مثل تلك الدراسة تتكفّل بحل المفارقة المشار إليها.

الحواشي (الهوامش):

1 -انظر: نجيب زبيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، 2/ 280.

2 - حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 413

3 -المرجع نفسه، ص 414

4 - حمدي عبد المنعم: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 325 نقلا عن: ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص 28

5 -ديوان ابن قزمان، زجل 98/ 5، ص 664

6 - النشير هو الخبز.

7 -نجيب زبيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، 2/ 305

8 -المقّري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، 1/ 222

9 -عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 75

10 -ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 3، ج 2/ 653-654

11 - ديوان الأعمى التطيلي، ص 52

12 - المرجع نفسه، ص 42

13 -ديوان ابن قزمان، زجل 67/ 14، ص 436

14 - ديوان ابن قزمان، زجل 74/ 7، ص 480

15 -المغرب في حلى المغرب، 1/ 224

16 - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 72-73

17 - ديوان الأعمى التطيلي، ص 90

18 - المعجب، ص 151

19 - الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، ص 375-376

20 - حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، ص 24

21 - انظر تاريخ ابن خلدون، 6/ 187

22 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 7/ 236

23 – المعجب، ص 150

24 –حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، ص27

25 –من الآية 224/ سورة الشعراء.

26 – أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن، 3/ 470

27 – من الآية 227/ سورة الشعراء

28 – ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 4/ 247

29 – أبو عبد الله القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 12/ 271

30 –المصدر نفسه 13/ 149-150

31 – المصدر نفسه 13/ 150

32 –المصدر نفسه 13/ 151

33 – الذخيرة، ق3. 2/ 552

34 –المعجب، ص 144

35 – نفح الطيب، 3/ 191-192

36 –المصدر نفسه، ص 192

37 – انظر: التبيان، ص 106-107

38 – ديوان الأعمى التطيلي، ص 14

39 – ديوان ابن قزمان، زجل 102/ 13، ص 690

40 – يراجع ذلك وكثير من الأمثلة في: إبراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 86-101

41 –المعجب، ص 151، ولا ينتقض هذا التوجّه العام لفقهاء المرابطين ببزوغ نجم واحد من أكبر علماء الكلام، وهو أبو بكر بن العربي؛ لأن ذلك لا يعدو كونه حالة فردية، وكلام المعجب هنا شاخص إلى الحالة العامة، وموقف الفقهاء على العموم من علم الكلام.

42 – انظر المصدر السابق والصفحة نفسها.

43 – انظر نصّ الرسالة التي بعثها تاشفين بن علي لفقهاء بلنسية في: نصوص سياسية، حسين مؤنس،

مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، ص 113

44 – المصدر نفسه، ص112-113

45 –ديوان ابن قزمان، زجل 44/ 5، ص 306

46 –حسين مؤنس: نصوص سياسية، ص 113

47 –ابن عذاري: البيان المغرب، ص 94

48 – هذه الكلمة غير مشكولة في النص، وقد رأيت أنها تضبط على هذا النحو: الزَّمَرَة ككفرة وفَسَقَة، من يستعملون الزَّمر، وهو آلة موسيقية.

49 – ابن عذاري: البيان المغرب، ص 93

50 –ديوان ابن قزمان، زجل 71/ 3، ص 460

51 –ديوان ابن قزمان، زجل 94/ 4، ص 630

52 –الزجل نفسه، الفقرة 8

53 –ديوان ابن قزمان، زجل 22/ 4، ص 166

54 – المصدر نفسه، زجل 41/ 2، ص 286

55 – ديوان ابن خفاجة، ص 24

56 – ديوان ابن خفاجة، ص 219

57 –ديوان الأعمى التطيلي، ص 105

58 –ديوان ابن قزمان، زجل 97/ 6، ص 658

59 – الذخيرة، القسم 4، ج1، ص 357

60 – ديوان ابن خفاجة، ص 154

61 – ديوان الأعمى التطيلي، ص 221

62 – ديوان ابن قزمان، زجل 18/ 8، ص 128

63 –ديوان ابن قزمان، زجل 20/ 26، ص 152

64 –ديوان الأعمى التطيلي، ص 86

65 – ديوان ابن خفاجة، ص 242

66 – انظر خبر خروج أبي بكر بن العربي، واستشهاد بعض الفقهاء في وقعة (كتندة) سنة 514هـ في : نفح الطيب، ج4، ص 461

67 – ديوان ابن قزمان، زجل 10/86، ص 558

68 – ديوان ابن خفاجة، ص 20

69 – المصدر نفسه ، ص 243

70 – المصدر نفسه، ص 50

71 –ديوان الأعمى التطيلي، ص 86

72 –المصدر نفسه، ص 173.174

73 – ديوان ابن خفاجة، ص 155، وانظر رأي الغزالي في فقهاء عصره في: ملحق إحياء علوم الدين، ص 13

74 – المعجب، ص 150

75 – تحفة القادم لابن الأبّار، ص 18

76 – المُغرِب في حُلَى المَغرب، ج2، ص 267

77 – تحفة القادم لابن الأبّار، ص 19

78 – المغرب، ج2، ص 267

قائمة المصادر والمراجع

1 – ابن الأبّار، تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1967م.

2 – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1982م.

3 – بلكين، عبد الله، التبيان، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1955م.

4 – بو تشيش، إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1993م.

5 – التطيلي، ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

6 – ابن خاقان، الفتح، مطمح الأنفس ومسرح التأنّس، تحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م.

7 – ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، دار صادر، بيروت، (د.ت)

8 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1971م.

9 – زبيب، نجيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، 1995م.

10 – الشنتريني، ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، 1979م.

11 – عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عمّان، 1997م.

12 – عبد المنعم، حمدي، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م.

13 – ابن العربي، أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.

14 – ابن عطية، أبو محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد.

15 – القرطبي، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1964م.

16 – ابن قزمان، ديوان ابن قزمان، نشر ف. كورنيطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد،

1980م.

17 – مؤنس، حسين، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م.

18 – مؤنس، حسين، نصوص سياسية، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثالث، العدد الأول، 1955م.

19 – محمود، حسن أحمد، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة.

20 – المرّاكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م.

21 – المرّاكشي، ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

23 – المغربي، ابن سعيد، المُغْرِب في حُلى المَغْرِب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1964م.

24 – المقّري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.